ياسين طه حافظ

الحرب والسلم

عربات القطار تجيء محملة بالبنادق ، بار المحطة ممتلىء بالنجوم التي تتلامع والقهقهات .

كان في الشارع اعلان فيلم جديد ، وسيارة تعلن عن سحبة اليانصيب ، وسيل من البشر القلق المتهامس ـ امراة نصف عريانة .

تستدير الرؤوس اليها ـ الجليد المذهب فوق السهول السريعة .

ان ناقلة تطرح الآن اثقالها . فتيات ثلاث تهامسن عن ضابط اشقر يوقد سيكارة بانفعال ..

●

قرب بار المحطة كان الوداع الاخير :

تحدث ، اسمعها كل ما تشتهيه من اللفظ ، حين استداروا :

« على كل حال ، صباح الغد ، الفجر ، قطعاتنا باتجاه الـ ...

ولكنه الواجب الوطني .. هنا مخزن الصحف الآن ، هذي مجلتك ، الفتيات الجميلات فيها .. »

« أما لو تجملت افضل ، أجمل منها .. استمع ! ليس تنسى الذي كان عنه الحديث ، المقاييس عندك » .

« حين أعود ، تكونين أنت اكتنزت ، انا قد هزلت .. »

●

حين كان القتال ، وبعد القتال ، الاعاشة ما ارتبكت لحظة والبيانات ترادف وافية بالتفاصيل.

حين كان القتال ، تهاويت ما بين سبع محطات بث أتساقط ما بين أسلاكها يتقاذفني الغضب العسكري ، واسجن حين تموت المحطات في الليل ، ما بين أسلاكها عنكبوت .

كان صوتي تكسر فوق بلاط البيوت التي امتلأت بالصدى والنشيج .

كان صوتي تمدد مستوحشا في ضجيج الدعاية ، وانساب نحو البيوت التي تتهدل فيها غيوم من الحزن ، والاوجه المترقبة الصوت تشحب ، تيبس كالقشر ، بعد جفاف الدموع ـ

عجوز على الباب تبكي ، تهدم مثل السياج !

●

حينما جئت ، كنت أريد المخازن والسوق ، كنت أريد الحياة الجديدة .

وأنا في نهاية هذي الطريق ، أضعت المخازن والسوق ، عدت الى الكهف الحضري المحجب ،

أصبغ وجه الخطيئة بالحب ،

أضيع وجه الخيانة بالصخب المتناثر مثل شظايا الزجاج .

فاذا ما تمكنت أخرج من كهف الموت يوما ،

سأحمل وجها يخططه العار ،

ووجها يرقشه الزهو ،

ويبقى على الرف وجه اضمده كل يوم ..

●

على الهضبه .

كان بعض الجنود استراحوا وراحوا على الصخر الابيض المتجهم يقتسمون الطعام وينتظرون الاوامر ، لم تنته الوجبة ، انفجر الحجر الابيض المتجهم :

كانت وجوه معبأة بالرصاص ،

وكانت وجوه دما ،

وكان وجوه تأمل جامدة مثل شمع جديد ..

●

هذه الورشة . الآن عشر مكائن فيها .

ولكننا حين جئنا المدينة كنا انفرطنا خرز .

حين نجتاز مرتجفين ازقتها والشوارع ، كانت متابعة القدر الطبقي لاوجهنا ،

شبح يتهددنا سيفه كل يوم .

كبرنا . ألفنا مذلته والعذاب ، نما عشب الموت فوق الجلود .

ولكننا في زحام المدينة صار لنا موقع آخر للهجوم ،

وصار العدو المدافع ...

●

اللواء الذي يتقدم يومىء أن نتأخر بعضا من الوقت .

اللواء المدرع مشتبك . نتقدم . طائرة تسقط الآن والنار تشتعل ـ الجبهة :

تنسحب العربات مخلفة جثثا وحطام .

الجنود على القمة ،

والسفح ،

وفي آخر السلم الحجري .

●

في الصحيفة كنا ثلاثة مرتزقين .

الرجل الجالس في الركن : أحاديثه تملأ الغرفة حين يكون وحيدا .

العشيق تخلى ، وزوجته الآن في الباب تحمل ما بين أقدامها والجبين حديقة موت وحزن انتهاك .

النحيل الوديع : ضجيج يغلف جبهته المستكينة ، يحمل في صدره روح طير ، وما بين كفيه والوجه تطل القرابين تدعوه ، ووجه حبيبته راكد في زجاج النوافذ .

ثالث : تتبدل الوانه كالفصول ، وقمصانه تنضح العطر . كان يجيء أخيرا ليلقي ببضع سطور ويمضي ، وتمضي العطور ..

الثلاثة خرب أحداقنا ما رأينا .

نرسم الآن فوق المناضد بعض الطيور ...

●

خطأ في البداية .
المظاهرة انعطفت فجأة . لم يكن خط سير المظاهرة الشارع الآخرا !
فوجئت بالهجوم من الجانبين !
كان يدري بأنه يوما يموت وكان يردد هذا بفخر
انما لم يكن خط سير المظاهرة الشارع الآخرا !
عشرة ... البقية معتقلون .

●

انطفأ العالم الساعة .
ظلت القطعات ترقب .
الليل ليل رجال وصمت .
الليل تقدم ، تجتاز أكداسه الكتل البشرية
تقطع العصب المتوتر صافرة
« استعدوا ! »
استعدوا . وقوفا وأوجههم رعشة باتجاه السماء وأحداقهم تترصد ، تنتظر القاذفات ،
دقائق ، كان التمدد ، والاوجه البشرية مدفونة في التراب .

●

كان بار المحطة ممتلئا جثثا تتحرك . الضابط المتألم من رضّ ساعده يتحدث :
رمينا ، رمينا ، ولم تنج في السفح صخره .
صبينا الرصاص القنابل حتى انحنت آخر الشجرات .
انتهى الآن رعد القنابل والموت ، نستقبل الزهر الحلو ، نافورة في الحديقة ، دعوة رقص ، نواجه من يتعشق فينا الحديث عن الحرب
والجبهة القرمزية .

●

نحن ما بين رؤيتنا للخيوط التي سوف تنسج قمصاننا ، والخيوط التي سوف تنسج أكفاننا ،
نترقب أخبارهم ان تجيء :
كان في القبو معتقل وجهه للجدار
ويطلب منه اعتراف بما كان حول الجذور ...

●

انتهت لعبة الكرة الآن أو أجلت ، انما قد تدرب تدريبه الكامل ذاك الفريق .
حين كان المحكم ينحاز ، كاد لولا الخسارة ، ينهال لكما عليه وينهي المباراة .
ان المحكم ينحاز في كل ما مرّ بي من لعب .

●

في الطريق الى البيت ، كان عزيق بأبخرة مرة بتحدث مع قبضة المقعد الخشبي في الباص ،
يمتص منها الحلاوة يستنشق من عرق العابرين بقبضاتهم فوقها فوح طيف . وكان يلطخ سرواله الوحل ، وقبعة فوق رأسه قد سقطت تحته ، وقد رفع الوجه نحوي
ليشهدني انها أقسمت ستجيء !

●

وقدة الصيف تنفذ حمرتها والتوهج .
حين مرّ الجنود ، الجسور كانت تلوّى ،
تصايح مخنوقة وتسحق راكضة فوقها العجلات .
وقدة الصيف تبرد .
كان الخريف يوزّع يوزّع أسماله ، والشجيرات كانت تعرّى وتوقف حتى يمر الجليد ويحكم فيها
الجسور التي تتقطع من وطأة العجلات استراحت.
العتاد ، الذخيرة تحصى لتوضع ثانية في الصناديق .

●

حينما ترجع العربات تكون الوجوه مسافرة ،
والرؤوس تحارب .
والزمن المتقدم يجري الى الخلف .
وحين تلوح المداخن ينتبه العائدون ،
ويبدأ صمت جديد ...

●

قبل ان يطفأ الضوء في المكتب يجري الحديث :
« جنيفا جميله .
فاذا ما أتيت ستدفع كل الاجور ، الخرائط عندي ، التقارير عندي ، انتخاب النقابة ؟ أسهل أسهل مما تقدر . كان النقابيّ ميتا وأنت تخوّف منه ..
ساعة وسيأتونك منتصرين .
الاذاعة تجري مقابلة ،
الصحيفة تجري مقابلة ،
وتلصق فوق احتجاجاتهم بوسترات » !
يطفأ الضوء ، وقهقهة تملأ التلفون ...

●

هنالك فوق الهضاب البعيدة ، بين الجبال المحاطة بالليل والموت ، وفوق الدروب المحفرة الوجه ظلت جسوم ممزقة ، وصنوف من اللحم والدم والصرخات التي اختلطت بالتراب ..
هنالك ينبثق العشب ثانية ، اللحم الاحمر الاسود يمنحه خضرة ،
والدم المتجمد يرسم في الشمس اشكال قتلى وأسماء جرحى ...

●

كان شاي الحديقة ، والجارة المستفزة تسمعه صوتها وهو في البزة العسكرية منتظر لحظة
حين يخرج ، تخرج !
هذه صفحة .
صفحة ثانيه :
كان فيض من الدم يفرق آخر ما تحمل الذاكره .
يتمدد فوق السرير ، الى رأسه قدح فارغ ،
وضماد على الجبهة والساق ، والكلمات تساقط سائلة :
انتهى كل شيء .
لعبة الكرة ، الحبّ ، الحرب ... الرجل المتمدد يلفظ انفاسه ،
الطبيب يوقع آخر أوراقه :
انتهى كل شيء .

بغداد